وَتُنْكِرَ مَوْتَهُمْ وَأَنَا سُهَيْلٌ
طَلَعْتُ بِمَوْتِ أَوْلَادِ الزِّنَاءِ[١]

وعقاب لبنان

يمدح أبا عليّ هارون بن عبد العزيز الأوراجي الكاتب، وكان يذهب إلى التصوف:
[الكامل]

أَمِنَ ٱزْدِيَارَكِ فِي الدُّجَى الرُّقَبَاءُ
إِذْ حَيْثُ كُنْتِ مِنَ الظَّلَامِ ضِيَاءُ[٢]
قَلَقُ الْمَلِيحَةِ وَهْيَ مِسْكٌ هَتْكُهَا
وَمَسِيرُهَا فِي اللَّيْلِ وَهْيَ ذُكَاءُ[٣]
أَسَفِي عَلَى أَسَفِي الَّذِي دَلَّهْتِنِي
عَنْ عِلْمِهِ فَبِهِ عَلَيَّ خَفَاءُ[٤]

---

(١) سهيل: نجم. يرى العرب أنه يحمل الموت والخراب. يفخر الشاعر بأنه الموت المحتم لحاسديه؛ فإذا بشروقه في سماء حياتهم شؤم مؤذن بهلاكهم، هؤلاء أولاد الزنى، فلا يعرف آباؤهم، مما يستوجب احتقارهم وركنهم على مزبلة الحياة.

(٢) ورد البيت في: مغني اللبيب وشرح شواهده، للسيوطي: ٨٦. ويروى «إِذْ حيث أنتِ» بدلاً من «إذ حيث كنتِ». الازديار: الزيارة. الدّجى: الظلمة. يبدأ الشاعر قصيدته بمطلع وجداني. يخاطب الشاعر زائرته الليلية إنها نور يشعّ في ظلمة الليل الحالك فتمزّق عتمته وتضيء جنبات حياته وعدم سطوعها في سماء حياته يجعل الرقباء مطمئنين فلن ينكشف أمرهم ولن تكون لها زيارة تبعثر قلقه وخوفه من الظلام في وحشة الليل.

(٣) القلق: الاضطراب. هتكها: انكشافها. الذُّكاء: الشمس. الليل عالم فسيح يحمل في طيّاته أحلاماً ورؤى وأخيلة عِذاباً للمحبين كما يحمل الخوف للمعذّبين والقلق والهمّ للمحرومين، فالمحبّ ينتظر من يحملها الحبّ على تخطي حاجز الخوف لترتمي بأحضان حبيبها، والمبشر بمقدمها تضوّع المسك يسيح في أرجاء المكان عبقاً مسكراً؛ إنها الشمس بدفئها وحنانها في عتمة الحياة.

(٤) دلّهتني: تيّمتني. لقد فات الشاعر فرصة غالية وأسفه على ما جعله يأسف فوات فرصة الشعور بمعنى الحبّ ولقاء الحبيب؛ فهو المدلّه الذي أضناه الحبّ وذهب بعقله، فثمّة شيء لم يعرفه على حقيقته بقي خافياً عليه؛ وهنا يعمق الأسف في روحه وعقله.

وَشَكِيَّتِي فَقْدُ السَّقَام لأَنَّهُ
قَدْ كَانَ لَمَّا كَانَ لِي أَعْضَاءُ[١]

مَثَّلْتِ عَيْنَكِ فِي حَشَايَ جِرَاحَةً
فَتَشَابَهَا كِلْتَاهُمَا نَجْلَاءُ[٢]

نَفَذَتْ عَلَيَّ السَّابِرِيَّ وَرُبَّمَا
تَنْدَقُّ فِيهِ الصَّعْدَةُ السَّمْرَاءُ[٣]

أَنَا صَخْرَةُ الْوَادِي إِذَا مَا زُوحِمَتْ
وَإِذَا نَطَقْتُ فَإِنَّنِي الْجَوْزَاءُ[٤]

وَإِذَا خَفِيتُ عَلَى الْغَبِيِّ فَعَاذِرٌ
أَنْ لَا تَرَانِي مُقْلَةٌ عَمْيَاءُ[٥]

---

(١) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٣٩. السقام: المرض. لبّ الألم حمل الشاعر على التذمّر والتشكي لهجر حبيبته له؛ فقد كان يُحسّ طعم الألم ويجد له أسباباً تجعله يتذوّق لذّة العذاب في أعضاء جسده؛ فلكلٍّ عضو مذاق خاص، والآن ما عاد يُحسّ بهكذا إحساس لأن محبوبته تبخرت من جوّ حياته.

(٢) ورد البيت في: أمالي ابن الشجري ١: ١٦١، الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٣٩. مثلت: تشكلت وبدت. الحشا: ما اضطمَّت عليه الضلوع. إنها نظرات قاتلة، أصابت سهام عينيك قلب الشاعر فمزّقته وأدمته، فإذا بالجراح دامية اتّسعت واتّسعت بقدر نظراتك وبقدر ما تسلطه عيناك من إشعاعات اخترقت حُجُب القلب.

(٣) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٣٩. السابري: الدرع المحكمة النسج. الصعدة: الرمح المستقيم اللدن. تندق: تتكسّر، إنها نظرات سريعة النفاذ إلى أعمق قلب الشاعر اخترقت كلّ الحواجز حتى الدرع الواقي من أعتى أنواع السلاح فقد القدرة على المقاومة فانهار وتحطمت سدوده، رغم أن هذا القلب كانت لديه ملكة مقاومة الرماح التي تكسرت أمام صموده، وكان النصر حليفه في معاركه دائماً.

(٤) يفخر الشاعر برباطة جأشه وثبات عزيمته؛ فهو صخرة الوادي الصلبة التي تثبت للمحن رغم تعدّد أشكالها، فلا الأجواء من حرّ وسيول تزيلها عن مكانها. إنه الشاعر الفذّ الذي لا يطاوله غيره من الشعراء في سماء الشعر كالجوزاء يُنظر إليها بحسرة ملؤها الحسد والغيرة.

(٥) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٦٥، الغبي: الأحمق الغافل. =

شِـيَـمُ الـلَّـيَـالِـي أَنْ تُـشَـكِّـكَ نَـاقَـتِـي
صَـدْرِي بِـهَـا أَفْـضَـى أَمِ الْـبَـيْـدَاءُ[١]
فَـتَـبِـيـتُ تُـسْـئِـدُ مُـسْـئِـداً فِـي نَـيِّـهَـا
إِسْـآدَهَـا فِـي الْـمَـهْـمَـهِ الإِنْـضَـاءُ[٢]
بَـيْـنِـي وَبَـيْـنَ أَبِـي عَـلِـيٍّ مِـثْـلُـهُ
شُـمُّ الْـجِـبَـال وَمِـثْـلُـهُـنَّ رَجَـاءُ[٣]

= المقلة: العين. يطلّ من علياء اعتزازه بنفسه، فثمّة حمقى، بل رؤوسهم غباء يحول بينهم وبين تقدير الرجال على حقيقتهم، فلهؤلاء عذرهم، منهم كالعميان الذين تعامَوْا عن معرفة حقائق الأمور لعدم الرؤية لديهم، وهؤلاء يعذرون لإعاقتهم.

(١) الشيمة: العادة. أفضى: أدى إلى الاتساع. البيداء: المفازة. من عادة الشاعر أن جعلته أمانيه وأحلامه أن يسعى وراء المجد، فيجمع المال، وهو طريق القوّة وأن يتبوّأ ذُرى، وهذه لا تتأتّى للمرء إلّا بميادين البطولة، ومن ذلك كثرة الأسفار، فإذا بالعادة تتأصل لدى الشاعر حتى ناقته راحت تشكّ بنتيجة محاولته الحثيثة دون كلل أو ملل بنجاحه، فهو يقطع المفاوز ويتحدّى الأخطار، ورغم ذلك لم يحقّق ما تمنّاه.

(٢) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٨٩. الإسآد: سُرى الليل وإدمانه. النيّ: الشحم. المهمه: المفازة. الإنضاء: الهزال. ناقة الشاعر لا تعرف للراحة طعماً، فهي ليل نهار على سفر، تآكل الشحم لديها حتى هزلت، ورغم ذلك فإنها تقطع المفازات الخطرة على أمل الوصول إلى مستقر لها، ولكن عبثاً.

ـ ثمة بيتان لم يردا في الديوان على نفس الروي والقافية والوزن، وهما:

أنْـسـاعُـهـا مَـمْـغُـوطـةٌ وخِـفـافُـهـا مَـنْـكُـوحَـةٌ وطـريـقُـهـا عَـذْراءُ
يـتـلـوّن الـخِـرِّيـتُ مـن خـوف الـتَّـوَى فـيـهـا كـمـا يـتـلـوَّن الـحِـرْبـاءُ

ـ الأنساع، الواحد نسع: وهو سير كهيئة الزمام يُشدّ به الرحل. المغط: الخفاف المدّ. المنكوحة: هي المثقوبة بالحصى لصعوبة ووعورة الطريق فتدمى. الطريق العذراء: التي لم تسلك من قبل. يذكر الشاعر أن ناقته تتعرّض للمخاطر لكثرة ترحالها في أرض لم تعرف بشراً سلكها من قبل.

ـ الخِرِّيت: الدليل الذي يرود مجاهل الأرض عن معرفة جيدة. التوى: الهلاك، الموت. إنها المتاهة الخطرة، حتى الدّليل المتمرّس العالم بمجاهل تلك الأرض عن معرفة جيّدة فإنه على تردّد دائماً؛ فهو يتلفّت يميناً وشمالاً مخافة الضياع في تلك المفازة، فضلاً عن قسوة حرارة الشمس؛ فهو يتلوّن بألوان شتّى كما تتلوّن الحرباء.

(٣) ورد البيت في: مغني اللبيب وشرح شواهده، للسيوطي: ٢٧٦. شم الجبال: الجبال =

وَعِـقَـابُ لُـبْـنَـانٍ وَكَـيْـفَ بِـقَـطْـعِـهَـا
وَهُـوَ الـشِّـتَـاءُ وَصَـيْـفُـهُـنَّ شِـتَـاءُ[١]
لَـبَـسَ الـثُّـلُـوجُ بِـهَـا عَـلَـيَّ مَـسَـالِـكِـي
فَـكَـأَنَّـهَـا بِـبَـيَـاضِـهَـا سَـوْدَاءُ[٢]
وَكَـذَا الـكَـرِيـمُ إِذَا أَقَـامَ بِـبَـلْـدَة
سَـالَ الـنُّـضَـارُ بِـهـا وَقَـامَ الْـمَـاءُ[٣]
جَـمَـدَ الْـقِـطَـارُ وَلَـوْ رَأَتْـهُ كَـمَـا تَـرَى
بُـهِـتَـتْ فَـلَـمْ تَـتَـبَـجَّـسِ الأَنْـوَاءُ[٤]
فِـي خَـطِّـهِ مِـنْ كُـلِّ قَـلْـبٍ شَـهْـوَةٌ
حَـتَّـى كَـأَنَّ مِـدَادَهُ الأَهْـوَاءُ[٥]

= الشاهقة. إنها رحلة جِدّ شاقة، فثمّة جبال عالية تحول بين الشاعر وممدوحه، ورغم ذلك فلا يمنع وصوله لمن يرغب بمدحه وحصوله على جوائزه.

(١) عِقاب لبنان: جباله الشامخة الصعبة المرتقى. ومن الحوائل الطبيعية جبال تعانق السماء، تكلّلها غيوم ثلجيّة شتاءً وصيفاً، وشتاؤها يملأ القلوب برداً.

(٢) لبس: أشكل الأمور. ثلوج تكدّست، فارتدت الطبيعة ثوبها الأبيض الساحر، وبدل أن تثير الشاعر بجمالها الخلّاب أثارت فيه خوفه من الضياع؛ ذلك أن معالم الطريق محتها الثلوج، فإذا بهذا البياض يستحيل سواداً مخيفاً مرعباً.

(٣) ورد البيت في لسان العرب ١٢: ٤٩٧ مادة (قوم) ويقال: قام الماء إذا ثبت متحيّراً لا يجد منفذاً، وإذا جمد أيضاً، قال: وعليه فُسّر بيت أبي الطيب: . . . «أي ثبت متحيراً جامداً» النضار: الذهب. والشاعر المتكسّب يجد دائماً طريقه إلى ذهب ممدوحه، يستثير فيه ملكة الكرم ويغريه بذلك، فالكريم في بقائه بأرض، فلا بدّ له من نثر أمواله بين الناس كالماء يسيل خيره وتتّسع دوائره لتشمل أكبر عدد ممّن يستحقّون كرمه.

(٤) القطار، الواحدة قطرة من ماء. بهتت: دهشت. تتبجّس: تتفجر. الأَنواء، الواحد نوْء: سقوط نجم من الغرب وطلوع رقيبه من الشرق. وعلم الأنواء عند العرب يعنى بالأمطار لأهميتها في حياتهم. يتابع الشاعر الصورة المعبّرة عن شدّة كرم الشاعر إنه سبّاق إلى المكرمات؛ لذا تتجمّد المياه خجلاً من كرمه وعجزاً عن مقارعته ومباراته، فهو دائم السبق بكرمه.

(٥) المداد: الحبر. الأهواء: الميول والرغبات. والدلالة على شدّة كرم الممدوح أن من =

وَلِـكُـلِّ عَـيْـنٍ قُـرَّةٌ فِـي قُـرْبِـهِ
حَـتَّـى كَـأَنَّ مَـغِـيـبَـهُ الأَقْـذَاءُ[١]

مَـنْ يَـهْـتَـدِي فِـي الْـفِـعْـلِ مَـا لَا تَـهْـتَـدِي
فِـي الْـقَـوْلِ حَـتَّـى يَـفْـعَـلَ الـشُّـعَـرَاءُ[٢]

فِـي كُـلِّ يَـوْمٍ لِـلْـقَـوَافِـي جَـوْلَـةٌ
فِـي قَـلْـبِـهِ وَلِأُذْنِـهِ إِصْـغَـاءُ[٣]

وَإِغَـارَةٌ فِـي مَـا احْـتَـوَاهُ كَـأَنَّـمَـا
فِـي كُـلِّ بَـيْـتٍ فَـيْـلَـقٌ شَـهْـبَـاءُ[٤]

مَـنْ يَـظْـلِـمُ الـلُّـؤَمَـاءَ فِـي تَـكْـلِـيـفِـهِـمْ
أَنْ يُـصْـبِـحُـوا وَهُـمُ لَـهُ أَكْـفَـاءُ[٥]

= يبتغي من كرمه يحلو له الحصول على صكّ فيه وعد بعطاء جزيل؛ فالكلّ على موعد مع الغنى في حال كتابته ذلك الصكّ.

(١) قرّة العين: سعادتها وفرحها، الأقذاء، الواحدة قذى: ما يسقط في العين أو الشراب. ومن جمال أفضال ممدوحه أنه مدعاة السرور والفرح؛ فالقرب منه راحة وضمان مستقبل والبعد عنه عناء وغمٌّ ودموع ندم وفقر.

(٢) الممدوح ملهم الشعراء؛ فهم يستلهمون ممّا يقوم به من جليل الأعمال العظيمة، قولاً وفعلاً، إنه سبّاق إلى كلّ مكرُمة.

(٣) ومن مزايا ذلك الممدوح الفِطنة والذكاء فضلاً عن إحساسه بجمالية الشعر الذي يفعل في نفسه فعل السحر، فيبادر إلى الإنعام على الشعراء الذين يتوافدون عليه لسماعهم بكرمه، فبذلك يخلد بخلود أقوالهم فيه، وإشادتهم بجميل فعاله.

(٤) الإغارة: الهجوم فجأة دون سابق إنذار. احتواه: حصّله من مال. الفيلق: الفرقة من الجيش. الشهباء: البيضاء التي غلب بياضها على سوادها. شأن الشعراء مع هذا الممدوح أنهم يُفاجئونه بمدائحهم فيستولون على ثروته، كأن أقوالهم فيه جيوش تستحوذ على مشاعره وأمواله، وهو مسرور بما يفعل.

(٥) اللؤماء، الواحد لئيم: الخسيس الأرومة والخلق. الأكفاء، الواحد كفوء: المساوي. ومن آثار مسلك الممدوح أنه ظلم من اتّصف باللؤم على أن يقوم بأعماله العظيمة، فلن يستطيعوا أن يُجاروه أو يباروه في مكارمه وأفضاله.

وَنَـذِيـمُـهُـمْ وَبِـهِـمْ عَـرَفْـنَـا فَـضْـلَـهُ
وبِـضِـدِّهَـا تَـتَـبَـيَّـنُ الأَشْـيَـاءُ[١]
مَـنْ نَـفْـعُـهُ فِـي أَنْ يُـهَـاجَ وَضَـرُّهُ
فِـي تَـرْكِـهِ لَـوْ تَـفْـطَـنُ الأَعْـدَاءُ[٢]
فَـالـسَّـلْـمُ يَـكْـسِـرُ مِـنْ جَـنَـاحَـيْ مَـالِـهِ
بِـنَـوَالِـهِ مَـا تَـجْـبُـرُ الـهَـيْـجَـاءُ[٣]
يُـعْـطِـي فَـتُـعْـطَـى مِـنْ لُـهًـى يَـدِهِ الـلُّـهَـى
وَتُـرَى بِـرُؤْيَـةِ رَأْيِـهِ الآرَاءُ[٤]
مُـتَـفَـرِّقُ الـطَّـعْـمَـيْـنِ مُـجْـتَـمِـعُ الْـقُـوَى
فَـكَـأَنَّـهُ الـسَّـرَّاءُ وَالـضَّـرَّاءُ[٥]

---

(١) الذمّ: ذكر العيوب. واللؤماء مذمومون دائماً في كلّ مصر وزمان وفضل ممدوح الشاعر سببه هؤلاء الذين خَلَوْا من كلّ مكرمة، لذا لو كان الناس جميعاً كرماء فضلاء لما أمكن اكتشاف ما يمتاز به الممدوح من مزايا جعلته يحتل تلك المكانة الرفيعة في الوجود.

(٢) ومن حسن حظّ ذلك الممدوح أن أعداءه ناصبوه العداء فكان عليه مقاتلتهم وإذلالهم واستحواذه على أموالهم ونسائهم وإخضاعهم؛ وهذا سرّ سعادته، ولو علم هؤلاء أن حسن حظه بذلك لسالموه، وهذا ما يُفقده فرصة لا تعوّض، وبالتالي لا يستطيع المساهمة في غنى من يُغينهم بأمواله وحمايته لهم.

(٣) النوال: العطاء، الهيجاء: الحرب. والسلم مضرّ بمالية الممدوح والحرب مصدر ثراء له، لذا عليه أن يحمي ماله بطريقين: الحرب أولاهما وقوته ثانياً. والسلم باب راحة له ولجنده وهو فرصة لتوزيع ما غنمه من حروبه على من يحتمي بكنف غناه ويلوذ بلوائه.

(٤) اللهى، الواحدة لهوة: الهبات العظيمة. ومن مزايا ممدوح الشاعر أنه يعطي بلا حساب، فعطاؤه جزيل، وهو يساعد الكرماء على كرمهم، فهم واسطة بينه وبين الفقراء، وهو ذو رأي سديد، منه يستمدّ العقلاء آراءهم.

(٥) ومن مزايا الممدوح أنه خير لأصحابه يُغدق عليهم الخيرات، فيعيشون بنعيم، وهو شرّ لأعدائه، فيعيشون بشقاء وبؤس، فهو ذو وجهين متعارضين، فضلاً عن قوته وشدّته على أعدائه.

وكـــأنَّـــه مـــا لا تـــشـــاء عُـــداتُـــه
مُـــتَـــمَـــثِّـــلاً لـــوفـــوده مـــا شـــاؤوا[١]
يـــا أَيُّـــهَـــا الْـــمُـــجْـــدَى عَـــلَـــيْـــهِ رُوحُـــهُ
إِذْ لَـــيْـــسَ يَـــأْتِـــيـــهِ لَـــهَـــا ٱسْـــتِـــجْـــدَاءُ[٢]
اِحْـمَـدْ عُـفَـاتَـكَ لَافُـجِـعْـتَ بِـفَـقْـدِهِـمْ
فَـلَـتَـرْكُ مَـا لَـمْ يَـأْخُـذُوا إِعْـطَـاءُ[٣]
لَا تَـكْـثُـرُ الأَمْـوَاتُ كَـثْـرَةَ قِـلَّـةٍ
إِلَّا إِذَا شَـقِـيَـتْ بِـكَ الأَحْـيَـاءُ[٤]
وَالْـقَـلْـبُ لَا يَـنْـشَـقُّ عَـمَّـا تَـحْـتَـهُ
حَـتَّـى تَـحِـلَّ بِـهِ لَـكَ الـشَّـحْـنَـاءُ[٥]

---

(١) والممدوح على نقيض دائماً فأعداؤه يتمنّون له الخسران المبين ويعملون على ذلك، أمّا الوفود التي تكتنف دياره فإنهم ينعمون برفده وحسن ضيافته، ممّا يزيد حسد الحاسدين ويُثير سُخطهم.

(٢) المجدى: المُعطَى. ومن حسن حظّه أن الوفود عليه لا يطلبون منه روحه، ولو فعلوا لحصلوا عليها لعظم كرمه؛ فهم يكتفون بكرم نائله وحسن عطائه.

(٣) العفاة: طالبو المعروف. ويروى «لا فجعت بحمدهم» بدلاً من «لا فجعت بفقدهم». يطلب الشاعر من ممدوحه ردّ معروف طالبي إحسانه لأنهم لم يطلبوا منه روحه، لذا يدعو أن يبقوا على الدوام إلى جانبه ينعمون بفيض كرمه، ولقد بادلوا صاحبهم كرماً بكرم لأنهم يعملون على المحافظة عليه.

(٤) الأموات أموات، فكثرتهم وقلّتهم؛ فهم أموات على كلّ حال، ولكن في حال فقدك فسوف تنزل المصائب بالأحياء، فهم أحياء بحياتك لما تصبّ عليهم من فيض كرمك.

(٥) الشحناء: البغضاء، القلوب مكمن أسرار النفوس، فالكراهية تكمن في أعماق بني البشر، لا تنكشف إلّا في حال توفّر أسباب تفجرها، كالحسد والغيرة، وتلك الأسباب مصدرها المتفوّقون في هذه الحياة، ولذا فمن واجبك أيّها العظيم أن تبادل أعداءك دواءهم قتلاً وتشريداً.

لَـمْ تُـسْـمَ يَـا هَـارُونُ إِلَّا بَـعْـدَمَـا ٱتَّقَـ
ـتَـرَعَـتْ وَنَـازَعَـتِ اسْـمَـكَ الأَسْـمَـاءُ[١]
فَـغَـدَوْتَ وَاسْـمُـكَ فِـيـكَ غَـيْـرُ مُـشَـارِكٍ
وَالـنَّـاسُ فِـي مَـا فِـي يَـدَيْـكَ سَـوَاءُ[٢]
لَـعَـمَـمْـتَ حَـتَّـى الْـمُـدْنُ مِـنْـكَ مِـلَاءُ
وَلَـفُـتَّ حَـتَّـى ذَا الـثَّـنَـاءُ لَـفَـاءُ[٣]
وَلَـجُـدْتَ حَـتَّـى كِـدْتَ تَـبـخَـلُ حَـائِـلاً
لِـلْـمُـنْـتَـهَـى وَمِـنَ الـسُّـرُورِ بُـكَـاءُ[٤]
أَبْـدَأْتَ شَـيْـئـاً مِـنْـكَ يُـعْـرَفُ بَـدْؤُهُ
وَأَعَـدْتَ حَـتَّـى أُنْـكِـرَ ٱلإِبْـدَاءُ[٥]

---

(١) و (٢) تقارعت: تساهمت. أسماء البشر عناوين تحمل معناها ودلالتها، والبشر يتسمَّوْن بأسماء يلذّ لهم سماعها إمّا محبّة، وإما لموسيقاها، وإما لما لأصحابها دور في حياة أمة من الأمم. وهارون رمز تشرئب له الأعناق، تشبهاً وتفاؤلاً على أن يكون حاملو الاسم موفقين كصاحبه. وهذا لا يكفي، فأنت حملت الاسم ومن تسمّى لا يشاركك بفضلك فأنت فوق من اتّخذ الاسم وسيلة من وسائل التقرّب إليك، لكرمك وشمول عطائك معظم من تتولّى رعايتهم.

(٣) المِلاء، الواحد ملأى. فتّ: سبقت. اللفاء: الدنيء الخسيس من نعمة الوجود أن الصيت الحسن يشمل سائر البلدان، وقليل من يتحقّق له ذلك بفضل حسن فعاله، فتتهاوى النفوس عليه وكأنها فراشات تبحث عن الضوء، وهذا الممدوح تأتّى ذلك بفضل قريحة الكرم لديه فرغم حبّ الناس الكاسح له، فإنهم لم يوفوه حقّه ولم يُبادلوه إلّا بالنزر القليل ممَّا يستحقّ.

(٤) ورد البيت في: الخصائص، لابن جني ٣: ٢٤١. كرم لا حدود له يكاد ينتهي بالمرء إلى الفقر، ممَّا يُحوّله إلى البخل لنفاد ما في يديه، حتى الفرح المصحوب بالضحك المفرط فقد ينقلب إلى بكاء.

(٥) أبدأت: اخترعت. أعدت: كرّرت. يخاطب الشاعر ممدوحه مادحاً سابقته في الكرم، فهو سنَّ سنَّة لم تكن في سابق العهود حتى أدرك أقصى حالات الكرم، ولم يكتف بذلك بل إنه حالة متجدّدة، ممّا جعل الناس ينسبون ما كان من عادته في بدء رحلة الكرم عنده.

فَـالْـفَـخْـرُ عَـنْ تَـقْـصِـيـرِهِ بِـكَ نَـاكِـبٌ
وَالْـمَـجْـدُ مِـنْ أَنْ تُـسْـتَـزَادَ بَـرَاءُ[١]
فَـإِذَا سُـئِـلْـتَ فَـلَا لِأَنَّـكَ مُـحْـوِجٌ
وَإِذَا كُـتِـمْـتَ وَشَـتْ بِـكَ الْأَلَاءُ[٢]
وَإِذَا مُـدِحْـتَ فَـلَا لِـتَـكْـسِـبَ رِفْـعَـةً
لِـلـشَّـاكِـرِيـنَ عَـلَـى الْإِلٰـهِ ثَـنَـاءُ[٣]
وَإِذَا مُـطِـرْتَ فَـلَا لِأَنَّـكَ مُـجْـدِبٌ
يُـسْـقَـى ٱلْـخَـصِـيـبُ وَتُـمْـطَـرُ الـدَّأْمَـاءُ[٤]
لَـمْ تَـحْـكِ نَـائِـلَـكَ الـسَّـحَـابُ وَإِنَّـمَـا
حُـمَّـتْ بِـهِ فَـصَـبِـيـبُـهَـا الـرُّحَـضَـاءُ[٥]
لَـمْ تَـلْـقَ هٰـذا الْـوَجْـهَ شَـمْـسُ نَـهَـارِنَـا
إِلَّا بِـوَجْـهٍ لَـبِـسَ فِـيـهِ حَـيَـاءُ[٦]

(١) ناكب، عادل، مائل. يخاطب الشاعر ممدوحه، فلقد أدرك منتهى ذرى المجد، والتوفيق حليفه، فلا سبيل إلى النكول في هذا السبيل إلى الوراء، وكذلك لا سبيل إلى الاستزادة لأن المجد لم يعد لديه متّسع، فقد حلّ الممدوح في أعلى ذراه.

(٢) و (٣) كتمت: احتجبت. المثول بين يدي الممدوح لا يُقصد منه البخل، ولا الاستعلاء وإنّما الغاية منه معرفة أحوال الناس والاطلاع على شؤونهم عن كثب للقيام بما يحتاجونه من خدمات، فأفضال الممدوح دالَّة على كرمه وأريحيَّته. والمدح لا يزيد من قدره، فهو فوق كلّ تكريم، ولن يدرك ممدوح شأوه مهما بلغ في العلياء، ومن طبيعته لذّة العطاء، وهي من اللّه تعالى من اختصّهم بنعمة الكرم.

(٤) الدأماء: البحر. إن ما توافر لدى الممدوح هو عطاء ربّاني لذا فإنه ينهمر من لدن الله تعالى، وليس معنى ذلك قلة يده وانقطاع رزقه، فاللّه عزّ وجلّ يرزقه لعلمه أن الممدوح واسطة بين اللّه تعالى والبشر، والبحر فياض بالخير العميم، على سائر الناس.

(٥) ورد البيت في: أسرار البلاغة، للجرجاني: ٣١٥. معاهد التنصيص للعباسي ٢: ٩. النائل: العطاء. الرحضاء: العرق من أثر الحمّى الشديدة: إنها مباراة بين الإنسان ممثلاً بالممدوح وبين الطبيعة ممثلة بالأمطار الغزيرة؛ فالممدوح يُسارع في الخيرات ويفيض عطاؤه على البشر، ورحلة الشتاء طويلة الأمد، لذا فإنها تودُّ لو تجاريه بسرعة الكرم، لذا فإنها تصاب بالحمّى، والعرق يغطيها حسداً وحنقاً.

(٦) ورد البيت في: أسرار البلاغة: ٣٨٧، معاهد التنصيص للعباسي ١: ١١٦ ومن مغالاة =

فَبِأَيِّ مَا قَدَمٍ سَعَيْتَ إِلَى الْعُلَى
أُدُمُ ٱلْهِلَال لِأَخْمَصَيْكَ حِذَاءُ[١]
وَلَكَ الزَّمَانُ مِنَ الزَّمَانِ وِقَايَةٌ
وَلَكَ ٱلْحِمَامُ مِنَ الْحِمَامِ فِدَاءُ[٢]
لَوْ لَمْ تَكُنْ مِنْ ذَا الْوَرَى اللَّذْ مِنْكَ هُوْ
عَقِمَتْ بِمَوْلِدِ نَسْلِهَا حَوَّاءُ[٣]

خير من تحت السماء

وغنى المغني فقال:

[مخلّع البسيط]

مَاذَا يَقُولُ الَّذِي يُغَنِّي
يَا خَيْرَ مَنْ تَحْتَ ذِي السَّمَاءِ[٤]
شَغَلْتَ قَلْبِي بِلَحْظِ عَيْنِي
إِلَيْكَ عَنْ حُسْنِ ذَا الْغِنَاءِ[٥]

= الشاعر أنه جعل الشمس لا تخجل من إشراقها أمام أنوار وجه ممدوحه التي أشرقت على الكون بحيوية إشراقها ودفئها.

(١) الأديم: وجه الأرض، الأخمص: ما دخل في باطن القدم. يتعجب ويسأل ممدوحه عن شر تفوّقه، فقد أدرك المراكز وذرى المجد حتى أدرك القمر، فكان له حذاء يرتقي به إلى السماء.

(٢) الحِمام، بكسر الحاء: الموت. يدعو الشاعر بالبقاء السرمديّ لممدوحه أن يحميه الزمان، فلا يُفاجئه بنكباته ومصائبه، بل إنه يتمنى لو مات الموت لينعم برغد العيش ولذّة الحياة.

(٣) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٩٦. اللذ: لغة في الذي. الورى: البشر. عقمت: فقدت القدرة على الإنجاب. يختم الشاعر قصيدته مؤكداً على أن ممدوحه من البشر ينتمي إليهم لحماً ودماً، ويمتاز عنهم بمزايا جعلته يتبوّأ المكانة الرفيعة، ولو لم يكن هكذا لكانت حواء أمّ البشر ما ولدت من البشر أحداً يستحق شرف إنسان بمعنى الكلمة.

(٤) و (٥) الغناء لغة النفس والأذن، يسيح المرء مع النغم والصوتِ والأداء والمعنى في =